أثر الترجمة في التواصل اللساني

محمد كراكبي
جامعة باجي مختار- عنابة

إن مصطلح (التواصل) يمثل معطى معرفيا، وثقلا لالبا، ويعسر، في هذا المقام، الإحاطة بمشمولاته. وحسبنا أن نقول إن الدرس اللغوي العربي ساهم بقسط وافر في بسط بعض معالمه. فعلى مستوى الوضع اللغوي نجد أن المعجم العربي القديم [1] يوفر لنا معنيين قويمين:

1- **الاستمرار:**

عبرت عنه السياقات المعجمية بعدم الانقطاع، وخلاف الفصل، وضد الهجران.

وشاهد ذلك قول الشاعر[2]:

قام بها ينشد كل منشد وايتصلت[3] بمثل ضوء الفرقد

وقوله تعالى" ولقد وصلنا لهم القول"[4]

2- **انتهاء الشئ وبلوغ مراده:**

قال الشاعر[5] :

توصل بالركبان حينا، وتؤلف ال جوار، ويغشيها الأمان ربابها

أما على مستوى الاستعمال فلايكاد يفارق المعنيين المذكورين. وأقدم تواصل ينوط بالجنس البشري ما اتصل بالنبي آدام[6] عليه السلام. وأعلى نص يفرض التسليم، ويبين مصدر التواصل، وتنوعه المدونة اللغوية القرآنية. إذ ترشدنا إلى ثلاثة خطابات:

الخطاب الأول:

يبين أن الله مرسل الكلام، وأن آدم مستقبله. قال تعالى" قال يا آدم انبئهم بأسمائهم"[7]

الخطاب الثاني:

يبرز أن الشيطان باعث الكلام، وأن آدام متلقيه. قال تعالى" قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى"[8]

الخطاب الثالث:

يجلي أن ادم هو موجه الكلام إلى الله سبحانه وتعالى. ويتبين ذلك من الآية " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم"[9]

تفيد هذه الخطابات الثلاث أن التواصل بين الله، وآدم، وبين الشيطان، وآدم ثبت وقوعه، ولم يكن محل خلاف بين العلماء. بيد أن لغة التواصل لم يقع عليها إجماع. ولعل السبب راجع إلى انعدام التصريح باللغة المستعملة. ومن جراء ذلك اختلف العلماء في لغة آدم . فقيل إنها العربية، أو السريانية. وأورد السيوطي[10] في هذا الشأن نصين:

الأول:

يرجع مصدره إلى ابن عباس[11]. رأى" أن آدم عليه السلام كان لغته في الجنة العربية، فلما عصى سلبه الله العربية، فتكلم بالسريانية، فلما تاب رد الله عليه العربية".

الثاني:

" ... قال عبد الله بن حبيب[12] : كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربيا، إلى أن بعد العهد، وطال، حرف، وصار سريانيا، وهو منسوب إلى أرض سورى أو سوريانة،...قال : وكان يشاكل اللسان العربي، إلا أنه محرف، وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح، إلا رجل

واحد، يقال له جرهم، فكان لسانه لسان العربي الأول، فلما خرجوا من السفينة تزوج إرم بن سام بعض بناته، فمنهم صار اللسان العربي في ولده عوص أبي عبيد وعبيل، وجاثر أبي ثمود وجديس، وسميت عاد باسم جرهم ؛ لأنه كان جدهم من الأم، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشد بن سام، إلى أن وصل إلى يشجب بن قحطان من ذريته وكان باليمن ؛فنزل هناك بنو إسماعيل ؛ فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي".

مما يمكن استنتاجه من هذين النصين:

1- العلماء مجمعون على أن لآدم لغتين: العربية، والسريانية

2- العلماء متفقون على أن لغة آدم في الجنة هي العربية.

3- النص الأول يشير إلى أن لغة آدم تحولت من العربية إلى السريانية بسبب عصيانه، وقد استردها بتوبته، وقبولها من الله عز وجل.

4- يشير النص الثاني إلى:

أ- أن سبب تحول لغة آدم من العربية إلى السريانية طوال العهد الذي أدى إلى وقوع التحريف في اللغة الأصلية. وتضارب العلماء مرجعه إلى سلطان الغيب الذي ميز هذه الفترة الزمنية.

ب-وجود تشابه لغوي بين العربية، والسريانية، وأن اللسان العربي كان لصيقا برجل واحد هو (جرهم)

ج- تعايش لغتين في سفينة نوح: العربية المحرفة، التي صارت لغة سريانية، واللسان العربي الأصيل.

د-تم انتشار اللغة العربية من زواج (إرم بن سام) بعض بنات (جرهم). وازدادت انتشارا بتعلم بني قحطان اللغة العربية من بني إسماعيل.

هـ - بقاء اللغة السريانية في ولد أرفخشد بن سام.

ومن الإشارت المهمة في عملية التواصل في الفكر اللغوي العربية القديم ما رواه السيوطي[13] عن (الكيا الهراسي)[14] قائلا" ... وذلك أن الإنسان لما لم يكن مكتفيا بنفسه في معاشه، ومقيمات معاشه لم يكن له بد من أن يسترفد المعاونة من غيره، ولهذا اتخذ الناس المدن ليجتمعوا ويتعاونوا".

طبع الإنسان، إذا، يمقت العزلة، ولن يسطيع المخلوق البشري أن يحيا بمفرده، فكان محوجا إلى الآخر ليعينه على تحقيق أغراضه. وأعلى وسيلة لتحقيق تواصل كامل، ومتين مع بني جنسه هي اللغة. قال السيوطي[15] فيما رواه عن غيره" ... الإنسان هو المتمدن بالطبع، والتوحش دأب السباع ؛ ولهذا توزعت الصنائع، وانقسمت الحرف على الخلق ؛ فكل واحد قصر وقته على حرفة يشتغل بها ؛ لأن كل واحد من الخلق لا يمكنه أن يقوم بجملة مقاصده ؛ فحينئذ لا يخلو من أن يكون حاجته حاضرة عنده، أو غائبة بعيدة عنه، فإن كانت حاضرة بين يديه أمكنه الإشارة إليها، إن كانت غائبة فلا بد من أن يدل على محل حاجته وعلى مقصوده وغرضه، فوضعوا الكلام دلالة، ووجدوا اللسان أسرع الأعضاء حركة وقبولا للترداد".

يرشدنا النص إلى نوعين من التواصل:

1- التواصل الذاتي، وفيه يكون مستغنيا عن غيره.

2- التواصل غير الذاتي، وفيه يكون في أمس الحاجة إلى غيره.

وفق الحالين وضع الكلام، وكان اللسان مهيئا من لدن العزيز الحكيم للإبانة عن كل اتفاق، أو تبادل.

مر التواصل اللساني العربي بمرحلتين :

الأولى : ما يعرف بالصراع اللغوي بين اللهجات العربية:

إن أول إشكال يصادف الباحث في الإلمام بالمراحل الزمنية للغة العربية انعدام الوثائق، أو المصادر التي تغطي المرحلة النشوئية. ومن هذا المنطلق كان الحديث عن بداية نشأة اللغة العربية غامضا، وما يذكره الباحثون يتعلق ببعض النقوش "ولخلوها من النقط والحركات، بل ومعظم حروف المد، كانت محل خلاف كبير بين الدارسين في تفسيرها، فلم يهتدوا في شأنها إلى رأي حاسم قاطع"[16].

من هذه النقوش:

1-نقش (النمارة) بدمشق[17]:

بدايته" تي نفسى مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج..."

معناه " هذا قبر إمرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج ..."[18]

2-نقش (حوران) بجنوب دمشق[19] :

يبدأ بـــ" أنا شرحبيل بن ظلموا بنيت ذا المرطول ..."

معناه " أنا شرحبيل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة ..."[20]

يقرر الدارسون[21] عدم الاعتماد على هذه النقوش؛ لأنها مزيج من العربية، و الآرامية، وإنها لغة بعض الأقوام من العرب الذين عاشوا في شمال شبه الجزيرة العربية.

انطلق العلماء[22] من النصوص التي ترجع إلى ما يسمى بالعصر الجاهلي، أو الجاهلية الثانية، حيث كانت جزيرة العرب منقسمة قسمين:

1- الحواضر

2- البادية

جزيرة العرب المكونة من البيئتين تتميز بالتفكك اللغوي، والاجتماعي، وبهذا احتفظت القبائل العربية بنظام عاداتها، وتقاليدها، وبلهجاتها. وأول ثمرة التواصل[23] بين اللهجات العربية تأدية القبائل لمناسك الحج قبل الإسلام[24]، فمكن هذا اللقاء الديني من عقد صلات ثقافية بأمكنة سميت بالأسواق، وأشهرها : عكاظ، والمجنة، وذو المجاز، وخيبر. وفيها دارت مناظرات أدبية، ومساجلات. وجعلت مكة مكانا مقدسا لأي حوار سياسي، أو ثقافي. وكان الخطيب واعيا للهجته، ولهجات القبائل الأخرى، فلا يذكر إلا ما كان عذبا، سلسا، نافذا. وتخلص الشعراء من بعض اللهجات المذمومة[25] كالكشكشة، وتميزت بها لغة ربيعة، ومضر، وفيها تقلب كاف الخطاب في المؤنث شينا مثل : رأيتكش، لكش، وعليكش، كقول الشاعر[26] :

فعيناش عيناها، وجيدش جيدها ولونش إلا أنها غير عاطل

والفحفحة في لغة هذيل، فيجعلون الحاء عينا، والطمطمانية وهي لغة حمير، وفيها تقلب اللام ميما مثل : طاب امهوى، أي طاب الهواء، والعجعجة وهي لغة قضاعة، وفيها تبدل الياء المشددة جيما مثل : تميمي : تميمج وشنشنة اليمن، وفيها تصير الكاف شينا مثل : لبيش، أي لبيك، وعنعنة تميم، وفيها تحول أن إلى عن. وإذا دخلت هذه اللهجات لغة خطيب، أو شاعر ذم، وجعل أضحوكة[27].

هكذا برزت لغة أدبية نموذجية عالية، يتخذها الشاعر المفلق، والخطيب البارع، وتعايشت مع هذه اللغة الأدبية لهجات عربية للتواصل بين أفراد القبيلة الواحدة. وازدادت اللغة النموذجية نماء، وتطورا بمجئ الإسلام، وبنزول القرآن الكريم بها إلا أنه تحدى جميع العرب على الرغم من أنهم أرباب للفصاحة، والبلاغة، والبيان[28]. ونشير إلى أن اللغة

النموذجية هي لغة قريش التي انتصرت على كثير من اللهجات العربية بفعل العوامل الدينية، والاقتصادية، والسياسية[29] .

الثانية:حالة التأثر والتأثير بين العربية واللغات الأجنبية قديما وحديثا:

أ -الفترة القديمة :

من آيات التواصل بين العربية، واللغات الأجنبية دخول كثير من الألفاظ غير العربية إليها بعامل التطور، والاحتكاك، والترجمة. وتلك ظاهرة إنسانية، وقانون اجتماعي[30]. فتسربت[31] ألفاظ كثيرة من الفارسية، والهندية، والسريانية، والنبطية، والعبرية، والحبشية ... في لغة العرب قبل الإسلام، وظهر ذلك في لغة الشعر الجاهلي خاصة، وبعد الإسلام، وتجلى في القرآن الكريم[32].

إذا رجعنا إلى نصوص اللغويين العرب في معالجتهم للألفاظ الأعجمية، أمكننا إبداء الملاحظات التالية:

الأولى:

استعمال ألفاظ تنوسي أصلها الأعجمي، فتداولها الناس على أنها ألفاظ عربية مثل : الكف، والساق، والفراش، والصواب، والخطأ، و الغلط، والحسد وغيرها[33] .

الثانية :

اختلاف الناس في وجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم، وأرجع بعضهم ذلك إلى توافق اللغات. قال أبو عبيدة " ... وقد يوافق اللفظ اللفظ ويفارقه ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية، والآخر بالفارسية أو غيرها. فمن ذلك الاستبرق، وهو الغليظ من الديباج، وهو استبره بالفارسية أو غيرها ...". و منهم من ذهب إلى وجودها في القرآن الكريم. فمن السريانية طه، والطور، والربانيون، ومن الرومية الصراط، والقسطاس

والفردوس، ومن الحبشية مشكاة، وكفلين، ومن الحورانية هيت لك وغيرها.

يبدو أن الرأي التوفيقي الذي أخذ به أبو عبيدة[36] وهو أن أصل هذه الألفاظ أعجمي، ولسانها عربي حقيق بالأخذ، وقال في هذا الشأن "والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعا وذلك أن هذه الحروف أصولها عجمية ... إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، ومن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال عجمية فهو صادق..."

الثالثة:

تميزت الأسماء الأعجمية بثلاث ميزات[37] :

1- تغيرها، وإلحاقها بقوالب الكلام العربي مثلب : درهم، وبهرج(*).

2- تغييرها، وعدم إلحاقها بالأوزان العربية، مثل: آجر، وسفسير(**)

3- عدم التغيير، فإذا ألحقوها، عدت من قوالب الكلام العربي مثل : خراسان، وإذا لم يلحقوها، لم تعد منه مثل خرم(***)

الرابعة:

لم يستطع بعض العلماء الجزم بأعجمية بعض الألفاظ، أو عربيتها مثل : الآس(****)، والتكة(*****)، والند(******). ويفيد ذلك أن تحديد الفترة الزمنية لبعض حالات التأثر والتأثير يكتنفه غموض كبير، ومن ثمة يعسر إنهاء القول فيه.

الخامسة:

لم يقف العلماء مكتوفي الأيدي إزاء العدد الهائل غير المتناهي للألفاظ التي دخلت اللغة العربية، وبفضل قدراتهم اللغوية، واستيعابهم للمنقول شعرا، و نثرا، وحفاظهم على القرآن الكريم، والحديث النبوي

الشريف تم وضع معايير لغوية لتمييز اللفظ الأعجمي من اللفظ العربي. فمن هذه المعايير ما يرجع إلى النقل الصريح، ومنها ما يعود إلى بنية الكلمة، وسواء أتعلق بالوزن الصرفي كقولهم (إبريسم) فإنه خارج عن دائرة اللسان العربي، أم باجتماع بعض الحروف مثل : النون، والراء في كلمة (نرجس)، والزاي، والدال في كلمة(مهندز)، والصاد، والجيم في:(الصولجان)، والجيم، والقاف في (منجنيق)، والجيم، والتاء في (الجبت)، والجيم، والطاء في (الطاجن) وغيرها...[38]، ونراهم تصرفوا في أسماء الأجناس، فأجروا كثيرا منها على اللفظ العربي. أما أسماء الأعلام، فتركوها على عجميتها، ومنعوها من الصرف مثل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب...[39]، وعند تثنيتها، أو جمعها استعملوا القياس، فيقال في تثنية (إبراهيم) (إبراهيمان)، وفي جمعه (أباره) بالحذف، ورد اللفظ إلى أصول الكلام العربي[40]. وقد يقع تغيير لها في الاستعمال الشعري، كقول الأعشى[41] :

وكسرى شهنشاه الذي سار ملكه

الأصل (شاهان شاه) بحذف الألف.

2-الفترة الحديثة:

لم تسلم اللغة العربية كغيرها من اللغات من حالات التأثر، والتأثير. ويواجه علماء اللغة العرب المحدثين صعابا شتى في الحد من تسلل الألفاظ الأجنبية، ومرد ذلك إلى التطور السريع الحاصل في مجال العلوم الإنسانية، والعلمية، وفضل السبق التكنولوجي للدول الغربية، وعدم القدرة على ملاحقة هذا الصنيع المستحدث.

وتسعى الجهود الفردية، والمجامع، والجامعات إلى تذليل هذه العقبات باتخاذ الحذر إزاء كل جديد، وإذا اضطررنا إلى التعريب، فلا بد من جعل اللفظ الأعجمي مسايرا للقوالب العربية، فمن زنديق، زندقة،

وتزندق، ومن ديوان دون، تدوينا، وقد نلجأ إلى النحت في بعض المصطلحات العلمية، أو إلى التركيب المزجي.

إذا أنعمنا النظر في نصوص اللغويين العرب المحدثين بشأن تعريب، أو ترجمة المصطلحات العلمين، وجدنا أربعة آراء متباينة:

الرأي الأول:

لا يمانع من استعمال المعرب إذا دعت الضرورة. وإلى ذلك أشار أحدهم" أن ماجاء من هذا النقل جار على أسلوب القياس العربي فهو عربي مبين وهو عمدة الصناع، والمؤلفين والمترجمين وواضعي العلوم. ومن العربي الأصيل يكون اللسان الفصيح : لسان القراءة والكتابة والتعليم والإدارة "[42] .

الرأي الثاني:

ترك التعريب لمن هو أدرى بعلاقة المصطلح بمدلوله. وصاحب هذه الوجهة توفيق محمد شاهين[43]حيث قال" والخير أن يترك التعريب لأصحاب المهن والكتاب والصناع، ثم يعرض الأمر على المجامع والمختصين للتوثيق والقبول أو الرفض، وعلى وسائل الإعلان الدعاية والدفع للظهور وكثرة الاستعمال.

الرأي الثالث:

ينسب إلى بعض المتطرفين إذ " يرون وجوب تعريب الألفاظ الأعجمية كيفما اتفق، وبدون قيد ولا شرط..."[44] .

الرأي الرابع:

قال به بعض المتعصبين، ومفاده عدم جواز التعريب ؛ لأن لغتنا قادرة على إيجاد اللفظ المناسب لأي جديد، ومنهم الشيخ الإسكندري، والأديب الرافعي، وعز الدين التنوخي ...[45]

الرأي الخامس:

رأي معتدل يدعو إلى العمل بالتعريب إذا استدعى المقام على أن يحافظ على الذوق العربي، وقال به طه حسين، والشيخ الخضري، والشيخ عبد القادر المغربي، وأحمد أمين ...[46]

من الآثار المترتبة على ترجمة المصطلحات ظهور إشكالات متنوعة تتعلق بالجوانب الصوتية، واللفظية، والتركيبية ...

يلاحظ في مستوى الأصوات أن بعض الأصوات ليس لها مقابلات في اللغتين، وهذا يؤدي أحيانا إلى عدم إيجاد ترجمة دقيقة، ومن ثمة يضيع المعنى، وللخروج من هذا الاستشكال كما يبدو استعمال اللغة الصوتية العالمية، والجانب اللفظي يدرك فيه المترجم أحيانا تنوعه الدلالي في اللغة نفسها، وكثير من اللغات. من هذا المنطلق نحتار في اختيار المعنى اللصيق به. واتقاء ذلك لايكون إلا بالقيام بعمل تأصيلي لنقف على كل الدلالات الجامعة. والمنحى التركيبي نلحظ فيه أحيانا تعدد المعاني من جراء التقديم، والتأخير، والتراكيب الإضافية. فإذا قلنا: محمد النبي، عدت الجملة تامة ، وناقصة من منظورين:

أ- لفظ النبي خبرلمحمد (ص)، ففي هذه الحالة عدت الجملة تامة.

ب- لفظ النبي صفة لمحمد (ص)، ففي هذه الحالة عدت ناقصة.

لابد، إذا، أن نراعي، هاتين الحالتين، في الترجمة.

الهوامش:

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة (و ص ل)، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1992.

2- مص، ن، المادة نفسها.

3- " إنما أراد اتصلت، فأبدل من التاء الأولى ياء كراهية للتشديد". مص، ن، المادة نفسها.

4- سورة القصص، الآية 51.

5- هو الشاعر أبو ذؤيب، المصدر السابق، المادة نفسها.

6- " آدم : أبو البشر، قيل سمي بذلك لكون جسده من أديم الأرض، وقيل سمرة في لونه، يقال آدم نحو أسمر ، وقيل سمي بذلك لكونه من عناصر مختلفة، وقوى متفرقة...ويقال جعلت فلانا أدمة أهلي أي خلطته بهم، وقيل سمي بذلك لما طيب به من الروح المنفوخ فيه المذكور في قوله" ونفخت فيه من روحي"، وجعل له به العقل والفهم، والروية التي فضل بها على غيره ". الراغب الأصبهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي، مطبعة التقدم العربي، 1972. ويستفاد من هذا النص أن هناك أربعة معان مستوحاة من الكون، والخلق، والتكوين، والغيب. وهذه المعاني على اختلافها لصيقة ببني آدم.

7- سورة البقرة، الآية 33. وانظر الآية 35 من السورة نفسها، وسورة طه، الآية 117.

8- سورة طه، الآية 120.

9- سورة البقرة، الآية 37.

10-السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، ص 30.

11- مص، ن، ج1، ص ن.

12- مص، ن، ج1، ص 30، وتاليها.

13- مص، ن، ج1، ص 36.

14- مص، ن، ج1، ص ن.

15- مص، ن، ج1، ص ن.

16- د/إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص 34، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1973.

17- المرجع نفسه، ص ن.

18- د/عبد الواحد وافي، فقه اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، 1945.

19- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص 35.

20- المرجع السابق، ص 106.

21- المرجع السابق، ص 36.

22- المرجع نفسه، ص 37.

23- المرجع نفسه، 40.

24- المرجع نفسه، ص ن.

25- د/عبد الواحد وافي، فقه اللغة، 67.

26- المرجع نفسه، ص 68.

27- المرجع نفسه، ص 69.

28- المرجع السابق، ص 41.

29- د/عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص 108.

30- د/صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص 315، دار العلم للملايين، بيرت، لبنان، ط9، 1981.

31- المرجع نفسه، ص ن.

32- المرجع نفسه، ص 315.

33- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1 ، 123.

34- مص، ن، ج1، ص 266.

35- مص، ن ج1، ص 268.

36- مص، ن، ج1، ص 269.

37- مص، ن، ج1، ص 269، وتاليها.

*- كل ردئ من الدراهم

**- السمسار.

***-نبات الشجر

****-المشموم.

*****-رباط السروال.

******-الطيب.

38- مص، ن، ج1، ص 270.

39- مص، ن، ج1، ص 286.

40- مص، ن، ج1، 293.

41- مص، ن، ج1، ص ن.

42- د/توفيق محمد شاهين، عوامل تنمية اللغة العربية، ص 144، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1 ، 1980.

43- المرجع نفسه، ص ن.

44- المرجع نفسه، ص ن.

45- المرجع نفسه، ص145.

46- المرجع نفسه، ص ن.